

خَبَاب بن الأرت بين رمضان مكة وأحياء غزة

www.maarig.com

عمر بن أحمد بن حمد الخليفي قسم العقيدة والفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وتابعهم

بإحسان إلى يوم الدين

وبعد؛ فإن جِبَلَّة الضعف في الإنسان وطول مدَّة البلاء واشتداد وطأة المحن عليه قد تحجَّب عنه الحِكم من السنن الإلهية، واستبطاء نصر الله قد يورث العبد شكًا في وعده أو ارتيابًا في جدوى السبيل الذي سلكه رغبة فيما عند ربه.

ولا تخطئ العين اليوم في ظلِّ محنة إخواننا في أرض الرباط -نصرهم الله وفرِّج عنهم- شيئًا مما سبق من بعض الناس، والغريب أن كثيرًا من الذين يتساءلون بتضجُّر وأسى (متى نصر الله؟) ليسوا ممن تدكُّ مساكنهم قنابل العدو الغاصب، وإنما يصدر هذا -غالبًا- ممن يتابع هذه الأحداث من بُعد، وهو معافي في بدنه، آمن في سريره، عنده قوت يومه!

ولذا فكلامي هنا تذكرة لي ولمن كانت هذه حاله، أما المجاهدون فلهم منَّا الدعاء بالنصر والتمكين.

وقد اخترت نموذجًا نقتبس منه شيئًا من الدروس المتعلقة بالسنن الإلهية في النصر والتمكين، وهو حديث خَبَاب بن الأرت رضي الله عنه.

كان خباب بن الأرت مملوكًا أغرى المشركين صِغْرُ سِنِّه، وقلة حيلته، فساموه سوء العذاب، حتى إنهم أوقدوا له جمراً ورموه فيه فلم يطفئه إلا ودك ظهره!¹

يقول خَبَاب "شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسِّد بُردةً له في ظلِّ الكعبة، فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل

1 تهذيب حلية الأولياء لأبي نعيم، تهذيب: صالح الشامي، (128/1) والودك: الشحم والدهن.

فيُحفر له في الأرض فيُجعل فيها، ثم يُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُجعل نصفين، ويُمشط بأمشط الحديد ما دون لحمه وعظمه، ما يصدُّه ذلك عن دينه. والله ليُتِمَّنَّ اللهُ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"².

في هذا الحديث العظيم جملة من العبر التي نستفيدها في فهم سنن الله في الكون، منها ما يلي:

1- يقول خَبَّاب "شكونا.." كُلُّهُمْ شَكَّوْا، فالجراحات عمَّت -كحال المسلمين اليوم- المستضعفين في مَكَّة كُلِّهِمْ، وتلك النفس المشحونة بأنواع الألم، والمثقلة بألوان الأذى التي تحكي القصة لم تكن نفس خَبَّاب وحده، ف (النموذج الخَبَّابي) كانت أمثلته في الواقع متعددة، والشكوى كانت عامَّة لم تُحدد بنوع من أنواع الأذى والابتلاء، إذ إن العذابات تنوَّعت، والمرارات تكاثرت. كانوا يُلبسون المسلمين المستضعفين أذراع الحديد، ويصهرونهم في الشمس، ويضربونهم بالسياط حتى ترتوي السياط بدمائهم، حتى اضطر من اضطر منهم إلى النطق بكلمة الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان. ثم حوصروا وقوطعوا في شِعب أبي طالب في مَكَّة حتى شهدت على جوعهم وعذابهم أشداقهم المتقرحة، وشفاهم المتبيسة، وعيونهم الغائرة، وبطونهم الضامرة، فهذا سعد بن أبي وقاص يحكي أنه بقي ثلاثة أيام يقات على قطعة جلد بغير وجدها في الشِّعب!³.

2- يقول النبي صلى الله عليه وسلّم مجيبًا خبابًا "قد كان من قبلكم..."
لم يُجب النبي صلى الله عليه وسلّم طلب أصحابه باستنصار الله لهم، ليعلموا سنَّة الله في خلقه، وأنهم ليسوا أكرم على الله تعالى من الابتلاء، وأن الله تعالى مُقَدِّرٌ ما شاء ولا اعتراض على أقداره ولا معقب لحكمه.
وإنما أشار النبي صلى الله عليه وسلّم إلى ما لقيه من كان قبلهم، وفي هذا إشارة إلى أمور منها:

² رواه البخاري (6943)

³ تهذيب حلية الأولياء، (94/1)

- أ- أن من كان قبلهم أصيب في سبيل الله تعالى، وفي هذا إشارة للاقتداء بالسلف الصالح من أتباع الأنبياء السابقين.
- ب- أن بلاءهم بالتعذيب كان أشد مما أصاب الصحابة منه
- ت- أنهم صبروا على ذلك البلاء ولم يرُدَّهم عن دينهم
- ث- أن النبي صلى الله عليه وسلم -مع ما حكاه من شدة بلائهم في ذات الله- لم يُشِرْ إلى أنهم مُكِّنوا في الأرض، في حين أنه عليه الصلاة والسلام بشَّر الصحابة بالتمكين في الأرض.

3- "لَيَتَمَنَّ اللَّهُ هذا الأمر!"

نعم، هذا الأمر (الإسلام)، هذا ما وعد به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. لم يعد النبي صلى الله عليه وسلم خبائبًا ولا من كان معه من الصحابة بأنهم سيرون هذا النصر، بل ليس من شرط النصر أن يكونوا موجودين وقتئذ! وهذه عادة الوحي، فهو يطمئن الناس على دينهم لا على أنفسهم، والوعد بالاستخلاف ليس لأحد بعينه من الأمة، بل هو وعد عامٌ قد نراه بأعيننا وقد لا نراه.

ولئن كانت نبرة اليأس متفهمّة من عامة المسلمين الذين لم يعرفوا سنن الله في خلقه، فإن الدعاة والمصلحين لا يمكن أن يُتقبَّل منهم ذلك أبدًا، فهم أعلم الناس بأن الله العليم الحكيم لم يضمن للناس السلامة في الدنيا إن استقاموا على دينه وشرعه.

بل إن الوحي -على عكس ما في تصور كثير من الناس- يبيِّء المؤمنين لتلقي أنواع من الابتلاء التي لا مناص لهم منها؛ فالله تعالى يقول (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَمَا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمُ الصَّابِرِينَ) (أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ).

وإن من مساح الذهن التي وقفت عند تأملها طويلاً حال الصحابة الأولين الذين ماتوا في مكة.

الذين لم يتلذذوا برؤية النصر والتمكين.

الذين كان آخر عهدهم بالدنيا: دماؤهم المُرَاقَة على أزقة مكة، وقهقهات كفار قريش هازئين منهم ومن النبي صلى الله عليه وسلّم!
ياسر بن عامر وزوجه سمية، وآخرون ربما سقطوا من ذاكرة التاريخ، لأنهم ما شاركوا في فتوحات المسلمين، ولا تولّوا الولايات، ولا صار لهم شأن في الدنيا، ولكن حسبهم أن الله يعرفهم.
بل إن منهم من مات وهو يظن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مقتول في غزوة أحد!

كان آخر عهد أنس بن النضر بالدنيا ما أثير من أراجيف نعي رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وانقضاض المشركين على المسلمين، وقصّته في ذلك معروفة. وقد أكرم الله خبّابًا فرأى عزّة الإسلام، غير أن من أصحابه من لم ير ذلك، ويحكي خبّاب بنفسه هذا فيقول "هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله، نبتغي وجه الله، فوجب أجرنا على الله، فمنا من مضى ولم يأكل من أجره شيئًا، منهم مصعب بن عمير، قُتل يوم أحد، فلم يوجد شيء يُكفّن فيه إلا نَمِرَة، فكُنّا إذا وضعناها على رأسه خرجت رجلاه، وإذا وضعناها على رجله خرج رأسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: "ضعوها مما يلي رأسه، واجعلوا على رجله الإذخر" ومنا من أينعت له ثمرة فهو يهدبها"⁴.
خلاصة الأمر: لا ينبغي أن تخشى على مصير الدين، فالدين دين الله، والله حافظه، فابحث لك عن موطنٍ قدّم في نصرته.

4- "ولكنكم تستعجلون!"

في هذا الجزء عتاب من النبي صلى الله عليه وسلم لخباب ومن معه على استعجالهم النصر!
كل تلك العذابات والجراح لم تشفع لهم أن يتضجروا من وضعهم الذي هم فيه، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلّم بالصبر، وأخبرهم بما لقيه من كان قبلهم.

والناظر في الواقع المعيش يجد أن كثيرًا من التنازلات عن المبادئ -والتي قد يُرخص فيها بعض من ينتسب للعلم أو الدعوة- تكون تحت ضغط الواقع

⁴ رواه البخاري (4047) ومسلم (940) واللفظ له.

للخروج من الأزمات -وهو أهون بكثير من واقع خبَاب ومن معه- فإذا ما فُحصت بعين الشرع المتجرّدة عن الهوى كانت سرابًا بقيعة يحسبه الظمآن والله تعالى يبشّر المؤمنين بأنه سيمكّن لهم دينهم (الذي ارتضى لهم) وليس الذي ارتضوه هم لمناسبتهم مصالحهم الراهنة، فالتضحية واقعة -ولا بدّ- بأحد أمرين: إما المبدأ أو النفس، والتضحية بالمبدأ لون من ألوان الركون إلى العدو (وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ).

ماءً، فاللهم عفوًا وغفرًا!

ختام وبُشرى:

"يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتدّ بلاؤه، وإن كان في دينه رقةً ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة"⁵.

"ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيتَ مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل، عزًّا يُعزُّ الله به الإسلام، وذُلًّا يُذلُّ الله به الكفر"⁶.

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ).

⁵ رواه الترمذي (2398)

⁶ رواه أحمد والطبراني والبيهقي وصححه الحاكم.